قراءات

القدس في يومين مشهودين

دخل الفرنج الصليبيون مدينة القدس يوم الجمعة لسبع بقين من شعبان سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة. ولبثوا فيها اسبوعاً وهم يقتلون المسلمين. واحتمى جماعة من المسلمين بمحراب داود، فاعتصموا به، وقاتلوا فيه ثلاثة أيام، فبذل لهم الفرنج الأمان، فسلموه إليهم، ووفى لهم الفرنج، وخرجوا ليلاً إلى عسقلان فأقاموا بها. وقتل الفرنج بالمسجد الأقصى ما يزيد على سبعين ألفاً منهم جماعة كثيرة من أئمة المسلمين وعلمائهم وعبادهم وزهادهم ممن فارق الأوطان وجاور بذلك الموضع الشريف، وأخذوا من عند الصخرة نيفاً وأربعين قنديلاً من الفضة وزن كل قنديل ثلاثة آلاف وستمائة درهم. وأخذوا تنوراً من فضة وزنه أربعون رطلاً بالشامي - وأخذوا من القناديل الصغار مائة وخمسين قنديلاً نقره. ومن الذهب نيفاً وعشرين قنديلاً، وغنموا منه ما لا يقع عليه الاحصاء. وورد المستنفرون من الشام في رمضان إلى بغداد، صحبة القاضي أبي سعد الهروي، فأوردوا في الديوان كلاماً أبكى العيون، وأوجع القلوب، وقاموا بالجامع يوم الجمعة، فاستغاثوا وبكوا وأبكوا، وذكروا ما دهم المسلمين بذلك الشريف المعظم من قتل الرجال وسبي الحريم والأولاد ونهب الأموال، فلشدة ما أصابهم، أفطروا، فأمر الخليفة أن يسير القاضي أبو محمد الدامغاني وأبو بكر الشاشي وأبو القاسم الزنجاني وأبو الوفا بن عقيل وأبو سعد الحلواني وأبو الحسين بن سماك، فساروا إلى حلوان، فبلغهم قتل مجد الملك البلاساني، فعادوا من غير بلوغ أرب ولا قضاء حاجة. واختلف السلاطين الأتراك، فتمكن الفرنج من البلاد، فقال أبو مظفر الأبيوردي في هذا المعنى أبياتاً منها:

مزجنا دماء بالدموع السواجم فلم يبق منا عرصة للمراحم
وشر سلاح المرء دمع يفيضه إذا الحرب شبت نارها بالصوارم
فأيها بني الإسلام إن وراءكم وقائع يلحقن الذرى بالمناسم
أتهويمة في ظل أمن وغبطة وعيش كنوار الخميلة ناعم
وكيف تنام العين ملء جفونها على هفوات أيقظت كل نائم
وإخوانكم بالشام يضحي مقيلهم ظهور المذاكي أو بطون القشاعم
تسومهم الروم الهوان وأنتم تجرون ذيل الخفض فعل المسالم
وكم من دماء قد أبيحت ومن دمي تواری حياء حسنها بالمعاصم
بحيث السيوف البيض محمرة الظبا وسمر العوالي داميات اللهاذم
وبين اختلاس الطعن والضرب وقفة تظل لها الولدان شيب القوادم
وتلك حروب من يغب عن غمارها ليسلم، يقرع بعدها سن نادم
سللن بأيدي المشركين قواضباً ستغمد منهم في الطلى والجماجم
يكاد لهن المستجن بطيبة ينادي بأعلى الصوت يا آل هاشم
أرى أمتي لا يشرعون إلى العدا رماحهم والدين واهي الدعائم
ويجتنبون النار خوفاً من الردى ولا يحسبون العار ضربة لازم
أترضى صناديد الأعاريب بالأذى ويفضى على ذل كماة الأعاجم
فليتهم إذ لم يذودوا حمية عن الدين ضنوا غيرة بالمحارم
وإن زهدوا في الأجر إذ حمس الوغا فهلا أتوه رغبة في الغنائم
لئن أذعنت تلك الخياشيم للبرى فلا عطسوا إلا بأجدع راغم
دعوناكم والحرب ترنو ملحة إلينا بألحاظ النسور القشاعم
تراقب فينا غارة عربية تطيل عليها الروم عض الأباهم
فإن أنتم لم تغضبوا بعد هذه رمينا إلى أعدائنا بالجرائم

★ ★ ★

كان ذلك هو اليوم الأول ـ أما اليوم الثاني فكان يوم ٢٧ رجب ٥٨٣ هـ (١١٨٧ م) حيث أعاد المسلمون فتح القدس بقيادة صلاح الدين الأيوبي. وتضمنت

قصة ذلك اليوم المشهود - كما وردت في التراث:

كان صلاح الدين قد أقام بظاهر عسقلان حتى فتحها، وبث السرايا في أطراف البلاد المجاورة لها، ففتحوا الرملة والداروم وغزه ومشهد ابراهيم الخليل عليه السلام وتبنين وبيت لحم وبيت جبريل والنطرون، وأرسل الى مصر - بواسطة الحمام الزاجل - يستدعي اسطوله الذي سار فور وصول الاستدعاء، في جمع من المقاتلة بقيادة مقدم الاسطول الحاجب - حسام الدين لؤلؤ - وهو معروف بالشجاعة والشهامة ويمن النقيبة، فأقام الاسطول في البحر يقطع الطريق على الفرنج، كلما رأى لهم مركباً غنمه، وشانياً أخذه. وسار صلاح الدين عن عسقلان الى القدس. وكان بها البطرك المعظم عندهم، وهو أعظم شأناً من ملكهم، وبها أيضاً صاحب الرملة باليان ابن بيرزان وكانت مرتبته عندهم تقارب مرتبة الملك. وبها أيضاً من خلص من فرسانهم من حطين وقد جمعوا وحشدوا، واجتمع أهل تلك النواحي وغيرها، فاحتشد في القدس كثير من الخلق يرون جميعاً أن الموت أيسر عليهم من أن يملك المسلمون القدس ويأخذوها منهم، ويرون أن بذل نفوسهم وأموالهم وأولادهم هو بعض ما يجب عليهم من أجل الدفاع عن القدس وتحصينها، فعملوا خلال تلك الأيام بما وجدوا إليه سبيلاً. وصعدوا على سور القدس، بحدهم وحديدهم، مجتمعين على حفظها والدفاع عنها بجهدهم وطاقتهم مظهرين العزم على المناضلة دونها بحسب استطاعتهم، ونصبوا المنجنيقات ليمنعوا من يريد الدنو منها والنزول عليها. ولما اقترب صلاح الدين منها، تقدم أمير في جماعة من أصحابه غير محتاط ولا حذر. فلقيه جمع من الفرنج قد خرجوا من القدس فقاتلوه وقاتلهم فقتلوه وقتلوا جماعة ممن معه، فأهم المسلمين قتله، وفجعوا بفقده، وساروا حتى نزلوا على القدس منتصف رجب، فلما نزلوا عليه، رأى المسلمون على سوره من الرجال ما هالهم وسمعوا لأهله من الجلبة ومن الضجيج من وسط المدينة ما استدلوا به على كثرة الجمع.

وبقي صلاح الدين خمسة أيام يطوف حول المدينة لينظر من أين يقاتله، لأنه في غاية الحصانة والامتناع، فلم يجد عليه موضع قتال إلا من جهة الشمال، نحو باب عمود أو كنيسة صهيون. فانتقل إلى هذه الناحية في العشرين من رجب، ونزلها، ونصب

تلك الليلة المنجنيقات، فأصبح من الغد وقد فرغ من نصبها ورمى بها. ونصب الفرنج على سور البلد منجنيقات ورموا بها، وقوتلوا أشد قتال رآه أحد من الناس، كل واحد من الفريقين يرى ذلك ديناً وحتماً واجباً فلا يحتاج فيه إلى باعث سلطاني، بل كانوا يمنعون ولا يمتنعون، ويزجرون ولا ينزجرون. وكان خيالة الفرنج كل يوم يخرجون إلى ظاهر البلد يقاتلون ويبارزون، فيقتل من الفريقين وممن استشهد من المسلمين الأمير عز الدين عيسى ابن مالك، وهو من أكابر الأمراء، وكان أبوه صاحب قلعة جعبر، وكان يصطلي القتال بنفسه كل يوم.

فانتقل إلى رحمة الله تعالى، وكان محبوباً إلى الخاص والعام. فلما رأى المسلمون مصرعه عظم عليهم ذلك وأخذ من قلوبهم، فحملوا حملة رجل واحد، فأزالوا الفرنج عن مواقفهم، فأدخلوهم بلدهم. ووصل المسلمون إلى الخندق فجاوزوه والتصقوا إلى السور فنقبوه وزحف الرماة يحمونهم، والمنجنيقات توالي الرمي لتكشف الفرنج عن الأسوار، ليتمكن المسلمون من النقب، فلما نقبوه حشوه بما جرت به العادة. فلما رأى الفرنج شدة قتال المسلمين وتحكم المنجنيقات بالرمي المتدارك وتمكن النقابين من النقب، وأنهم قد أشرفوا على الهلاك، اجتمع مقدموهم يتشاورون فيما يأتون ويذرون، فاتفق رأيهم على طلب الأمان وتسليم القدس إلى صلاح الدين. فأرسلوا جماعة من كبرائهم وأعيانهم في طلب الأمان، فلما ذكروا ذلك للسلطان، امتنع من إجابتهم، وقال:

«لا أفعل بكم إلا كما فعلتم بأهله حين ملكتموه سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة من القتل والسبي وجزاء السيئة بمثلها».

فلما رجع الرسل خائبين محرومين، أرسل ـ باليان بن بيرزان ـ وطلب الأمان لنفسه ليحضر عند صلاح الدين في هذا الأمر وتحريره، فأجيب إلى ذلك، وحضر عنده ورغب في الأمان وسأل فيه، فلم يجبه إلى ذلك، واستعطفه فلم يعطف عليه، واسترحمه فلم يرحمه، فلما أيس من ذلك قال له:

«أيها السلطان! اعلم أننا في هذه المدينة في خلق كثير لا يعلمهم إلا الله

تعالى، وإنما يفترون عن القتال رجاء الأمان، وظناً منهم أنك تجيبهم إليه كما أجبت غيرهم. وهم يكرهون الموت ويرغبون في الحياة. فإذا رأينا الموت لا بد منه، فوالله لنقتلن أبناءنا ونساءنا ونحرق أموالنا وأمتعتنا، ولا نترككم تغنمون منها ديناراً واحداً ولا درهماً. ولا تسبون ولا تأسرون رجلاً ولا امرأة. وإذا فرغنا من ذلك أخربنا الصخرة والمسجد الأقصى وغيرهما من المواضع. ثم نقتل من عندنا من أسارى المسلمين وهم خمسة آلاف أسير. ولا نترك لنا دابة ولا حيواناً إلا قتلناه. ثم خرجنا إليكم كلنا وقاتلناكم قتال من يريد أن يحمي دمه ونفسه، وحينئذ لا يقتل الرجل حتى يقتل أمثاله، ونموت أعزاء أو نظفر كراماً».

عاد صلاح الدين فاستشار أصحابه، فأجمعوا على إجابة الفرنج على طلبهم الى الأمان واستقر الاتفاق على أن يؤخذ من الرجل عشرة دنانير، يستوي فيه الغني والفقير، ويزن الطفل من الذكور والبنات دينارين، وتزن المرأة خمسة دنانير. فمن أدى ذلك إلى أربعين يوماً. فقد نجا، ومن انقضت الأربعون يوماً عنه ولم يؤد ما عليه، أصبح مملوكاً. فبذل باليان بن بيرزان عن الفقراء ثلاثين ألف دينار، فأجيب إلى ذلك.

وسلمت المدينة يوم الجمعة السابع والعشرين من رجب. وكان يوماً مشهوداً. ورفعت الأعلام الاسلامية على أسواره.

ورتب صلاح الدين على أبواب البلد في كل باب أميناً من الأمراء ليأخذوا من أهله ما استقر عليهم. فاستعملوا الخيانة ولم يؤدوا فيه أمانة. واقتسم الأمناء الأموال، وتفرقت أيدي سبأ. ولو أديت فيه الأمانة، لملأ الخزائن وعم الناس. فانه كان فيه على الضبط ستون ألف رجل ما بين فارس وراجل، سوى من يتبعهم من النساء والولدان. ولا عجب في ذلك، فقد اجتمع في القدس كل من في تلك النواحي من البلاد التي فتحها المسلمون. حتى امتلأت الطرق والكنائس بهم، وحتى صار الانسان لا يقدر أن يمشي - لشدة الزحام - ومن الدليل على كثرة الخلق أن أكثرهم وزن ما استقر من القطيعة، وأطلق باليان بن بيرزان ثمانية عشر ألف رجل وزن عنهم ثلاثين ألف دينار.

وبقي بعد هذا جميعه من لم يكن معه ما يعطي. وأخذ أسيراً ستة عشر ألف ما بين رجل وامرأة وصبي. كما أن جماعة من الأمراء ادعى كل واحد منهم أن جماعة من رعية إقطاعه مقيمون بالقدس، فيطلقهم ويأخذ قطيعتهم. وكان جماعة من الأمراء يلبسون الفرنج زي الجند المسلمين ويخرجونهم ويأخذون منهم قطيعة قرروها. واستوهب جماعة من صلاح الدين عدداً من الفرنج فوهبهم لهم، فأخذوا قطيعتهم، وبالجملة فلم يصل إلى خزائنه إلا القليل. وكان بالقدس بعض نساء الملوك من الروم وقد ترهبت وأقامت به، هي ومن معها من الحشم والعبيد والجواري خلق كثير، ولها من الأموال والجواهر النفيسة شيء عظيم. فطلبت الأمان لنفسها ومن معها، فأمنها وسيرها. وكذلك أيضاً أطلق ملكة القدس التي كان زوجها الذي أسره صلاح الدين قد ملك الفرنج بسببها ونيابة عنها، كان يقوم بالملك، وأطلق مالها وحشمها، واستأذنته في المصير إلى زوجها وكان حينئذ محبوساً بقلعة نابلس، فأذن لها، فأتته وأقامت عنده. وأتته أيضاً امرأة صاحب الكرك، البرنس أرناط (أو رينالد شاتيون) وهو الذي قتله صلاح الدين بيده يوم حطين فشفعت في ولد لها مأسور فقال لها صلاح الدين: إن سلمت الكرك أطلقته لك. فسارت إلى الكرك فلم يسمع منها الفرنج ولم يسلموه، فلم يطلق ولدها ولكن أطلق مالها ومن تبعها. وخرج البطرك الكبير الذي للفرنج ومعه من أموال البيع منها الصخرة والأقصى وقمامة ـ القيامة ـ وغيرها ما لا يعلمه إلا الله تعالى. وكان له من المال مثل ذلك، فلم يعرض له صلاح الدين. فقيل له ليأخذ ما معه، يقوي به المسلمين. فقال: «لا أغدر به». ولم يأخذ منه غير عشرة دنانير. وسير الجميع ومعهم من يحميهم إلى مدينة صور.

كان الفرنج قد وضعوا على رأس قبة الصخرة صليب كبير مذهب، فلما دخل المسلمون يوم الجمعة، تسلق جماعة منهم إلى أعلى القبة ليقلعوا الصليب، فحين صعدوا صاح الناس كلهم صوتاً واحداً من البلد ومن ظاهره، المسلمون والفرنج، أما المسلمون فكبروا فرحاً. وأما الفرنج فصاحوا تفجعاً وتوجعاً. فسمع الناس صيحة كادت الأرض أن تميد بهم لعظمها وشدتها.

فلما ملك المسلمون البلد، وفارقه الكفار، أمر صلاح الدين إعادة الأبنية إلى حالها

القديم، فإن الداوية بنوا غربي الأقصى أبنية ليسكنوها، وعملوا فيها ما يحتاجون إليه من هرى ومستراح وغير ذلك، وأدخلوا بعض الأقصى في أبنيتهم، فأعيد إلى الأول. وأمر بتطهير المسجد والصخرة من الأقذار والأنجاس. ففعل ذلك أجمع. ولما كان الجمعة الأخرى - رابع شعبان - صلى المسلمون فيه الجمعة ومعهم صلاح الدين وصلى في قبة الصخرة.

وعندما أذن المؤذنون للصلاة، قبل الزوال، كادت القلوب تطير من الفرح في ذلك الحال.

ولم يكن للمسجد خطيب معين، فأصدر السلطان صلاح الدين - المرسوم الصلاحي - وهو في قبة الصخرة أن يكون قاضي دمشق محي الدين بن الزكي هو الخطيب والإمام في ذلك اليوم. فلبس محي الدين بن الزكي الخلعة السوداء. وبدأ خطبته بقوله:

﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ﴾

ثم أورد تحميدات القرآن كلها إلى أن قال: الحمدلله معز الإسلام بنصره، ومذل الشرك بقهره ومصرف الأمور بأمره، ومزيد النعم بشكره، ومستدرج الكافرين بمكره، الذي قدر الأيام دولاً بعدله، وجعل العاقبة للمتقين بفضله، وأفاض على العباد من ظله وهطله، الذي أظهر دينه على الدين كله، القاهر فوق عباده فلا يمانع، والظاهر على خليفته فلا ينازع، والآمر بما يشاء فلا يراجع، والحاكم بما يريد فلا يدافع، أحمده على إظفاره وإظهاره وإعزازه لأوليائه، ونصرة أنصاره، ومطهر بيت المقدس من أدناس الشرك وأوضاره، حمد من استشعر الحمد باطن سره وظاهر أجهاره. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد. شهادة من طهّر بالتوحيد قلبه، وأرضى به ربه، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، رافع الشكر وداحض الشرك ورافض الإفك، الذي أسرى به من المسجد الحرام إلى هذا المسجد الأقصى، وعرج به منه إلى السموات العلى، إلى سدرة المنتهى،

عندها جنة المأوى، ما زاغ البصر وما طغى، صلى الله عليه وسلم، وعلى خليفته الصديق السابق إلى الايمان، وعلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، أول من رفع عن هذا البيت شعار الصلبان. وعلى أمير المؤمنين عثمان بن عفان ذي النورين جامع القرآن. وعلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب مزلزل الشرك، ومكسر الأصنام وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان.

تهنئة وتغبيطاً للحاضرين بما يسره الله على أيديهم من فتح بيت المقدس، الذي من فضائله ومآثره أنه أول القبلتين وثاني المسجدين وثالث الحرمين، لا تشد الرحال بعد المسجدين إلا إليه. ولا تعقد الخناصر بعد الموطنين إلا عليه، وإليه أسري برسول الله ﷺ من المسجد الحرام، وصلى فيه بالأنبياء والرسل الكرام، ومنه كان المعراج إلى السموات، ثم عاد إليه، ثم سار منه إلى المسجد الحرام على البراق. وهو أرض المحشر والمنشر يوم التلاق. وهو مقر الأنبياء ومقصد الأولياء وقد أسس على التقوى من أول يوم.

ثم ذكر تمام الخطبتين، ثم دعا للخليفة الناصر العباسي، ثم دعا للسلطان الناصر صلاح الدين. وبعد الصلاة جلس الشيخ زين الدين أبو الحسن بن علي نجا المصري على كرسي الوعظ بإذن السلطان، فوعظ الناس. واستمر القاضي ابن الزكي يخطب بالناس في أيام الجمع أربع جمعات، ثم قرر السلطان للقدس خطيباً مستقراً، وإماماً برسم الصلوات الخمس. وأمر أن يعمل له منبر. فقيل له إن نور الدين - زنكي - كان قد عمل بحلب منبراً أمر الصناع بالمبالغة في تحسينه وإتقانه. وقال: هذا قد عملناه لينصب بالبيت المقدس. فعمله النجارون في عدة سنين، لم يعمل في الإسلام مثله. فأمر باحضاره فحمل من حلب، ونصب بالقدس. وكان بين عمل المنبر وحمله ما يزيد على عشرين سنة. وكان هذا من كرامات نور الدين وحسن مقاصده رحمه الله. ولما فرغ صلاح الدين من صلاة الجمعة تقدم بعمارة المسجد الأقصى، واستنفاذ الوسع في تحسينه وترصيفه وتدقيق نقوشه. فأحضروا من الرخام الذي لا يوجد، ومن الفص المذهب القسطنطيني وغير ذلك مما يحتاجون إليه، قد ادخر على طول السنين، فشرعوا في عمارته، ومحوا ما كان في تلك الأبنية من الصور.

وكان الفرنج قد فرشوا الرخام فوق الصخرة وغيبوها فأمر بكشفها. وكان سبب تغطيتها بالفرش أن القسيسين باعوا كثيراً منها للفرنج الواردين إليهم من داخل البحر للزيارة، يشترونه بوزنه ذهباً رجاء بركتها. وكان أحدهم إذا دخل إلى بلاده باليسير منها، بنى له الكنيسة ويجعل في مذبحها. فخاف بعض ملوكهم أن تفنى، فأمر بها ففرش فوقها حفظاً لها. فلما كشفت نقل إليها صلاح الدين المصاحف الحسنة والربعات الجيدة. ورتب القراء. وأدر عليهم الوظائف الكثيرة. فعاد الإسلام هناك غضاً طرياً. وهذه المكرمة من فتح البيت المقدس لم يفعلها بعد عمر بن الخطاب رضي الله عنه غير صلاح الدين رحمه الله وكفاه ذلك فخراً وشرفاً. وأما الفرنج من أهله، فإنهم أقاموا وشرعوا في بيع ما لا يمكنهم حمله من أمتعتهم وذخائرهم وما لا يطيقون حمله. وباعوا ذلك بأرخص الأثمان. فاشتراه التجار من أهل العسكر، واشتراه النصارى من أهل القدس الذين ليسوا من الفرنج، فانهم طلبوا من صلاح الدين أن يمكنهم من المقام في مساكنهم ويأخذ منهم الجزية، فأجابهم إلى ذلك، فاستقروا.

وعادت القدس للإسلام وأهله